سلطة الآباء

للأستاذ أحمد أمين

رحم الله زماناً كان الأب فى بيته الآمر الناهى ، والحاكم المطلق ، والملك غير المتوج ؛ ينادى فيتسابق من فى البيت إلى ندائه ، ويشير فاشارته أمر ، وطاعته غنم ؛ تحدثه الزوجة فى خفر وحياء ، ويحدثه الابن فى اكبار واجلال ؛ من سوء الأدب أن يرفع اليه بصره ، أو يرد عليه قوله ، أو يراجعه فى رأى ، أو يجادله فى أمر . أما البنت ، فاذا حدثها لف الحياء رأسها ، وغض الخجل طرفها ؛ قليلة الكلام ، متحفظة الضحك ، خافضة الصوت ؛ تتوهم أنها أخطأت فى التافه من الأمر فيندى جبينها ، ويصبغ الخجل وجهها ، وتنكس بصرها ؛ واذا جاء حديث الزوج والزواج قالى أمها الحديث لا إلى أبيها ، وبالتلويح والتلميح لا بالتصريح ؛ والأمر إلى الأب فيما يقبل وفيما يرفض ، وفيما يحدث وما لا يحدث

فى جملة الأمر أن البيت ينقسم إلى قسمين : حاكم وهو الأب ، ومحكوم عليه وهو سائر الأسرة ؛ منه الأمر ومنهم الطاعة ، له السيادة ولهم الخضوع ، يرسم الخطط وهم ينفذونها ، يجلب الرزق ويتولى الانفاق وهم يسيرون على ما رسم ؛ وويل لمن تبرم أو عارض ! فان أحس الابن حاجة ملحة إلى مال ، أوشعر بضرورة ملجئة إلى أكثر مما أخذ ، لم يجرؤ أن يجابه بالطلب ؛ إنما يحاور ويداور ، ويلمح ويرمز ؛ فان أعياه الأمر وسّط الأم لعلها تستطيع أن تعبر تعبيراً أوضح وأصرح ، وقل أن تنجح

وبجانب سلطة الأب الدنيوية كانت سلطته الدينية . فهو يوقظهم قبل الشمس ليصلوا الصبح أداء لا قضاء ، ويسائلهم فى أكثر الأوقات عن صلاتهم كيف صلوا ، وعن وضوئهم كيف توضأوا ؛ يعلم الجاهل ويؤم المتعلم ، ويجمعهم حوله من آن لآن يصلى بهم ، ويذكرهم ويعظهم ، ويقص عليهم قصص الأنبياء ، وحكايات الأولياء والصلحاء — وإن أنس لا أنس جمال المواسم الدينية — كيوم نصف شعبان ، إذ تشعر فى البيت من الصباح بحركة غير عادية : هذا ينظف ، وهذه تعد الأكل الحافل ، ويتهيأ الجميع قبل الغروب استعدادا لصلاة المغرب ، قد لبس النساء البياض ، وتقمن بالشاش الأبيض ، وإذا رب البيت يؤم جميع من فى البيت ، ثم يخرج دعاء نصف شعبان من جيبه ويتلوه عليهم ، يقول جملة فيرددونها ، ويبتهل معهم إلى الله أن يسعده ويسعدهم ، ويصلحه ويصلحهم ، ويبارك له فى ماله وفى نفسه وفى ذريته ، ثم يأخذون حظهم لبطونهم ، كما أخذوا حظهم لأرواحهم ، وشملتهم السعادة وعمهم اللطف والهناءة

* * *

لقد ودعنا ذاك الزمان بخيره وشره ، وحلوه ومره ، واستقبلنا زماناً صار فيه الأبناء آباء ، وأرادوا أن تكون لهم السلطة كآبائهم فأبى عليهم الزمان

قالت الزوجة لزوجها : الناس أحرار ، وأنا انسان وأنت انسان ، فان اعتززت بالكسب اعتززت أنا بالانفاق ، وان اعتززت بالرجولة اعتززت بالأنوثة ، وان اعتززت بأى شىء فأنا اعتز بمثله وبخير منه ؛ فأنا وأنت شريكان ، لا سيد وأمة ، ولا مالك ومملوك ؛ لى كل الحقوق التى لك ، وقد يكون علىّ بعض الواجبات التى عليك ، فان سفرتَ سفرتُ ، وإن غشيت دور الملاهى غشيتها ؛ عليك أن تحصل المال وعلىّ الانفاق ، ولك السلطان التام فى اختيار طرق التحصيل ، ولى الخيار التام فى وجوه التبديد . أنت للبيت والبيت لى . إن كان لك أم فقد شبَعتْ سلطة فى الماضى أيام كانت زوجة ، فلا حق لها أن تنعم بسلطانها وسلطان غيرها ، فليس لها الحق إلا أن تأكل ، كما ليس لك الحق فى حبها ؛ فالحب كله للزوجة ، إنما لك أن ترحمها ؛ والدين لا شأن لك فيه بتاتاً فهو علاقة بين العبد وربه ، وكل انسان حر أن يحدد هذه العلاقة كما يوحى إليه قلبه ؛ فان شئت أنت أن تتدين فتدين ، على شرط ألا تقلب نظام البيت ، وتقلق راحتى وراحة الخدم ، بأعداد ماء ساخن فى الشتاء وما إلى ذلك

ورأى الزوج أن الأحكام قاسية ، والشروط قادحة ، وهام

يبحث بين المتمدنات عمن يرضى به زوجاً على الشروط القديمة فأعياه البحث

وأخيراً نزل على حكم القضاء، وأسلم نفسه لسلطان الزمان وقدّم الطاعة للزوجة، بعد أن كانت هي تقدم الطاعة له؛ ولا يزال في دار الآثار في المحاكم الشرعية قضايا اسمها قضايا الطاعة، يحكم فيها للأزواج على الزوجات؛ حفظ شكلها، وبطل روحها؛ ولو كانت المحاكم محاكم عصرية لحكمت بالطاعة على الزوج لزوجته، وحكمت بالنفقة على الزوجة لزوجها

وتم الزواج، وفرحت الزوجة بالظفر فنالت في المطالب، وابتدعت كل يوم مطلباً جديداً، وأرادت أن تنتقم لأمهاتها من آبائه في شخصه، فطالما أطعمتْن، وطالما خضعن! فليطع هو دائماً وليخضع دائماً، جزاء وفاقاً على ما جنى آباؤه وأجداده

قالت: إن رقصتَ رقصتُ، فذلك حقك وحقي؛ قال نعم. قالت بل إن لم ترقص رقصت لأنك ان أضعت حقك لم أضع حقي؛ وان خالتَ خالتُ، فالجزاء من جنس العمل، بل إن لم تخالل ربما خالات، لأن حياة الزوجية البحت قد يعتريها الركود والسأم والملل. فصرخ ولف الغضب وجهه، وحاول أن ينكل بها فتراجعت، وسحبت مطلبها الأخير ورأت الحكمة أن تتريث بعض الشيء حتى يبلع ريقه من أثر الصدمة الأولى، ويستعد للصدمة الثانية، فان لم يسعفها الزمان أوصت بناتها بشروطها الجديدة

قالت وسيكون من أول ما أوصي به ابنتي أن تتخذ قياس خطيبها، ثم يكون من أول جهازها أن تفصل له برذعة ولجاماً على قدره، فتضع البرذعة عليه وتركبه إذا شاءت، وتشكمه باللجام إذا حاول أن يتحرك يميناً أو شمالاً على غير رغبتها

* * *

وشاء الله أن يرزقا بنين وبنات

وقد رأوا أن الأم لا تجل الأب فلم يجلوه، ولم تمره كبير التفات فلم يعيروه؛ ورأوها تبذر في مال الأب فبذروا، ورأوها حرة التصرف فتحرروا، ورأوها تخرج من البيت من غير إذن الأب فخرجوا خروجها، وتعود متى شاءت ففعلوا فعلها، ورأوها لا تتدين فلم يتدينوا؛ ورأوها تطالب الأب ألا يفتح رسائلها فطالبوا، ورأوها تتكلم في المسائل الدقيقة أمام أبنائها وبناتها في صراحة فتفتحت شهواتهم، وتحركت رغباتهم، وغذتها تخيلاتهم

وقال الأبناء لأبيهم: إنا مخلوقون لزمان غير زمانك فاخضع لحكم الزمان؛ وقد نشأنا في زمن حرية في الآراء، وحرية في الأعمال، وحرية في التصرف، لا كما نشأتَ في جو من الطاعة والقيد والأسر والتقاليد، فمحال أن يسع ثيابك الضيق أبداننا، وتقاليدك العتيقة البالية نفوسنا، فان حاولت ذلك فانما تحاول ادخال الثور في قارورة، أو لفّ القصر الكبير بمنديل صغير! قال نعم. قالوا وأنت الذي سمح لنا بادئ ذي بدء أن نغشى دور السينما والتمثيل، وأن نسمع الأغاني البلدية، ونشاهد الراقص الأوربية، فاذا أقررت المقدمة فلا تهرب من النتيجة. وأنت الذي عودنا ألا نضع للبيت «ميزانية»، فأنت تعطي «ماهيتك» لأمنا تنفق من غير حساب، فان انتهت في نصف الشهر طلبت منك أن تقترض فاقترضت، وأن تشتري ما لا حاجة لنا به فاشتريت، وأن تقدم الكمالي على الضروري فأطعت؛ فليس لك أن تطالبنا بالاقتصاد في الجدول الصغير، والنهرُ الكبير ليس له ضابط. وخُرقٌ أن تحاول أن تضع ميزانية لمصلحة، وميزانيةُ الدولة مبعثرة! قال نعم. قالوا وقد أضعت سيادتك على أمنا فلمَ تفرض سيادتك علينا؟ ورضيت بالخضوع لها فلمَ تأباه علينا، وهي أم الحاضر وأنت أبو الماضي ونحن رجال المستقبل؟ قال نعم. قالوا وأنت نشأت في زمن خضوع تام: خضعت لأبيك في المهد صبيا، وخضعت للفقيه في الكتب، وللمدرس في المدرسة؛ فاذا قلت برأسك هكذا، قال الأستاذ بعصاه هكذا، فنكست رأسك، وغضضت بصرك، وأسعفتك عينك بالبكاء، ولم يسعفك لسانك بالقول؛ فلما صرت «موظفاً» وقفت من رئيسك موقفك من أبيك وأستاذك، تنفذ دائماً وتطيع دائماً — ولم يجر على ذهنك يوماً تفكير في استقلال، ولا على لسانك نداء بحرية؛ أما نحن فحريتنا في بيتنا: حررتنا على أساتذتنا، فحملتك كرهاً على تملقنا؛ وناديتنا بالحرية فتهمتمونا في شيء من الرياء،

تظهرون الطاعة لرؤسائكم وتبطنون الرضا عن حركاتنا ، وتريدون أن تجمعوا بين الحرص على ماهيتكم والحرص على وطنيتكم المكبوتة . قال نعم . قالوا : فلما قدناك وقدنا رجالنا فى السياسة فلنقدكم جميعاً فى كل شيء : فى البيت وفى المال وفى العلم وفى رسم الخطط : ولنقلب الوضع فنكون قادة وتكونوا جنوداً وإلا لم نرض عنكم جنوداً ولا قادة

وقالت البنات لأبيهن :

يا أبانا الذى ليس فى السماء ! رقصت أمنا فرقصنا ، وشربت أمنا فشربنا ، وشربت سراً فلتسمح لنا بحكم تقدم الزمان أن نشرب جهراً ، ورأينا فى روايات السينما والتمثيل حبا فأحببنا ، ورأينا عريا على الشواطئ فتعرينا ، وتزوجت أمنا باذن أبيها فلنتزوج نحن باذننا . قال نعم . قلن وقد أوصتنا أمنا أن نركب الزوج ، ولكننا أمام مشكلة يشغلنا حلها . فانا نرى شبان اليوم — كاخوتنا — متمردين لا يخضعون خضوعك ولا يستسلمون استسلامك ، فارادتهم قوية كارادتنا ، وهم يحبون السلطة حبنا ؛ فهم أحرار ونحن أحرار ، وهم مستبدون ونحن مستبدات ، فكيف نتفق ؟ هل يمكن أن يبقى البيت بعدة استبدادات ؟ ولكن لا بأس يا أبانا ! هل البيت ضرورة من ضرورات الحياة ؟ أوليس نظام الأسرة نظاما عتيقاً من آثار القرون الوسطى ؟ قال نعم . قلن على كل حال فيصح أن يجرب جيل النساء الجديد مع جيل الرجال الجديد ، فان وقع ما خشينا عشنا أحرارا وعاشوا أحرارا ، وطالبنا بتسهيل الطلاق وبهدم المحاكم الشرعية على رؤوس أصحابها ، وتعاقدنا تعاقدا مدنياً . قال الأب : وماذا تفعلن بما ترزقن من أبناء وبنات ؟ قلن لك الله يا أبانا ! إنك لا تزال تفكر بعقل جدنا وجدتنا ! لقد كنت أنت وأبوك وجدك تحملون أنفسكم عناء كبيرا فى التفكير فى الأولاد ، وتضحون بأنفسكم وأموالكم فى سبيلهم ، وتعيشون لهم لا لكم . أما عقليتنا نحن أهل الجيل الحاضر فأن نعيش لأنفسنا لا لغيرنا . لقد ضحك عليكم الدين والأخلاق ففهمتم أن الواجب كل شيء ، وكشفنا اللعبة ففهمنا أن اللذة كل شيء ، فنحن نمنع النسل ، فاذا جاء قسرا فليعش كما يشاء القدر ؛ ولنقدم حظنا على حظه ، وسعادتنا على سعادته ، ولا نفكر فيه طويلا ، ولا يتدخل فى شؤوننا كثيراً ولا قليلا

قال الأب : وأمر المال كيف يدبر ؟ كيف تعشن أنتن وأولادكن إذا كان طلاق وكان فراق ؟ قلن هذا ظل آخر ظريف من ظلال تفكيرك ، دع هذا يا أبانا والبركة أخيراً فيك

* * *

أما بعد فقد خلا الأب يوماً الى نفسه ، وأجال النظر فى يومه وأمسه ، فبكى على أطلال سلطته المنهارة ، وعزته الزائلة ، ورأى أنهم خدعوه بنظرياتهم الحديثة ، وتعاليمهم الجديدة — قال : لقد قالوا إن زمان الاستبداد قد فات ومات ، فلا استبداد فى الحكومة ، ولا استبداد فى المدرسة ، فيجب ألا يكون استبداد فى البيت ؛ إنما هناك ديمقراطية فى كل شيء ، فيجب أن يكون البيت برلمانا صغيراً يسمع فيه الأب رأى ابنه ورأى بنته ورأى زوجه ، وتؤخذ الأصوات بالأغلبية فى العمل وفى المال وفى كل شيء ؛ وقالوا تنازل عن سلطتك طوعاً ، وإلا تنازلت عنها كرها ، وقالوا إن هذا أسعد للبيت ، وأبعث للراحة والطمأنينة ، وقالوا إن هذا يخفف العبء عنك ، فنحن نقسم البيت إلى مناطق نفوذ ، فمنطقة نفوذ للمرأة ، وأخرى للرجل ، وثالثة للأولاد ، وكلهم يتعاونون فى الرأى ويتبادلون المشورة . سمعت وأطعت فماذا رأيت ؟ رأيت كل انسان فى البيت له منطقة نفوذ إلا إياى ، ولم أر البيت برلمانا ، بل رأيته حماما بلا ماء ، وسوقا بلا نظام ، إن حصلت على مال أرادته المرأة فستانا ، وأرادته البنت بيانو ، وأراده الابن سيارة ؛ ولا تسل عما يحدث بعد ذلك من نزاع وخصام . وإن أردنا راحة فى الصيف أردت رأس البر لأستريح ، وأرادت الأم والبنت الاسكندرية قريبا من ستانلى باى ، وأراد الابن أوربا ؛ وإن ، وإن ، إلى ما لا يحصى ، ولا يمكن أن يستقصى ؛ وأخيراً يتفقون على كل شيء إلا على رأيي . فوالله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما تزوجت ، فان كان ولابد ففلاحة صعيدية ، لم تسمع يوما بمدنية ، ولم تركب يوما قطارا الى القاهرة والاسكندرية ، لها يد صناع فى عمل « الأقراص » ، ورأس صناع فى حمل « البلاص »

أيتها الزوجة ! ويا أيها الأبناء والبنات ! ارحموا عزيز قوم ذل !

أحمد أمين